الفصل التاسع

في بيان أن الفكر أفضل أم الذكر؟

فنقول: الفكر أفضل من الذكر لوجوه: **أحدها**: أن الله تعالى جعل الذكر فاتحة درجات الصديقين حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عِمرَان: 191] الآية، والفكر خاتمة أمرهم حيث قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: 191] وغاية الشيء أفضل من مبدأه.

الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بكونه خيراً حيث قال: «**تفكُّر ساعة خير من عبادة الثقلين**»[1]، والذكر هو العبادة فيكون داخلاً فيها.

الثالث: أن الفكر وسيلة إلى ما هو أعظم من الطاعات وهو معرفة الله تعالى بخلاف الذكر.

الرابع: أن الفكر طلب نفساني لتحقيق ما هو من اللوازم فيكون أشق على البدن، والأشق أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام: «**أفضل الأعمال أحمزها**»[2] أي أشقها على البدن.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (35223) عن الحسن، وفي شعب الإيمان للبيهقي (118) عن أبي الدرداء، وعن ابن عباس وعن عمرو بن قيس وقال الملا على في المصنوع (94): ليس بحديث، إنما هو من كلام السري السقطي.

(2) لا أصل له، قال العجلوني في كشف الخفاء (459): لا يعرف، وقال القاري في الموضوعات الكبرى: معناه صحيح لما في الصحيحين عن عائشة: «الأجر على قدر التعب» انتهى.

الخامس: أن الفكر لا يكون إلا وأن يكون خالصاً لله تعالى، فإنه لا يمكن أن يطلع عليه أحد أصلاً بخلاف الذكر.

السادس: أن المتفكر طالب التقرب من الحضرة الإلٰهية بقلبه وعقله، والذاكر طالب بلسانه، والقلب والعقل أشرف وأعلى من اللسان.

السابع: أن عمل الفكر عمل القلب كما مر، والذكر عمل اللسان، والقلب أفضل من اللسان، فيكون الفكر أفضل.

الثامن: أن المتفكر أبداً يكون في الترقي من درجة إلى درجة بخلاف الذاكر فإنه كالواقف في شغله.

التاسع: ترك الفكر أبداً كفر، وترك الذكر أبداً معصية، والكفر أقبح فيكون ما يقابله أحسن وأفضل.

العاشر: نقل عن النبي ﷺ أنه كان دائم الفكر، وعلم بأنه لا يمكن أن يكون دائم الذكر[1].

وأما الذين قالوا بالعكس فقد احتجوا عليه بوجوه: أحدها: أن الذكر مأمور به لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41].

والفكر منهي عنه في قوله عليه الصلاة السلام: «**تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق**»[2] ولا شك أن المأمور به أفضل من المنهي عنه.

الثاني: أن الذكر أفضل لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45] إذ الأكبر من الغير هو الأفضل، ولا يقال المراد منه هو ذكر الله للعبد لا

---

(1) ثبت هذا الحديث في صحيح مسلم (373) عن عائشة رضي الله عنها وفي صحيح البخاري (1/ 227) تعليقاً.

(2) المعجم الأوسط للطبراني (6319) من عدة طرق عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما، وقال الحافظ في الفتح (13/ 383): وحديث ابن عباس: «**تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله**» موقوف، وسنده جيد.

ذكر العبد له، لأنه وإن كان كذلك فإنه يدل على أن الذكر أفضل، لما أن ذكر العبد للرب يستدعي ذكر الرب للعبد كما مر.

الثالث: الترغيبات الواردة في الذكر أعظم من الواردة في الفكر، كما في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41]وقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35].

الرابع: أن آخر مراتب درجات أهل الجنة ليس إلا الذكر لقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يُونس: 10] وهذا يدل على أنه أفضل.

الخامس: أن الذكر يبقى مع الذاكر في الجنة بخلاف الفكر، إذ الفكر مشتمل على التعب والنصب وأهل الجنة لا يمسهم فيها نصب، ولأنهم إذا أرادوا العلم بشيء فقد حصل لهم ذلك، ولو كان كذلك فلا حاجة إلى الطلب وهو الفكر.

السادس: أن الفكر لا يكون إلا من المخلوقات في المخلوقات إذ هو الانتقال من شيء إلى شيء، بخلاف الذكر فإنه قد يكون من الخالق وفي الخالق أيضاً، فيكون أكمل وأفضل.

السابع: أن الفكر طلب، والطلب عند الغيبة لا محالة، فإن طلب الحاصل محال بخلاف الذكر فإنه في مقام الحضور، وذلك أشرف من مقام الغيبة.

الثامن: أن الذكر عبادة ظاهرة فيكون أفضل إذ العبادة الظاهرة مرغبة للغير في العبادة.

التاسع: أن الذكر طرد الشيطان، واحتراز عن الوسواس، واشتغال بالحق، وإعراض عما سواه، والمشتمل على هذه المنافع العالية أفضل.

العاشر: أن الفكر طلب المقصود والذكر استبقاء الموجود، فكان ذلك علاج المريض، وهذا حفظ الصحة، ولا شك أنه أفضل.

فنقول في الأول من الكلام في الذكر باللسان: وذلك لا يكون مأموراً به على التصريح؛ بل الواجب أن يحمد ذلك على الكامل وهو الذكر بالقلب.

أو نقول: هب أنه مأمور به، لكن المنهي عنه هو الفكر في ذاته تعالى وتقدس، ولا كلام فيه، إذ الكلام في الفكر الذي هو تحقيق البراهين الباهرة على حقيقة ذات الله وصفاته.

وفي الثاني: أن ما ذكرتم لا يدل على أنه أكبر من الفكرة المتنازع فيها، ولأن الفكر لا يخلو عن الذكر، فيكون أفضل لما ذكرنا وذكرتم.

وفي الثالث: أن المبالغة في الترغيب يدل على أنه ليس بأفضل، ويدل على أنه خلاف العقل أيضاً، وإلا لا حاجة إلى الترغيب على سبيل المبالغة، ولا يستراب في أنه موقوف على الإجازة بخلاف الفكر.

وفي الرابع: أن وقوع الشيء آخراً لا يدل على كونه أفضل، وقد كان الثناء المحض في أول الفاتحة أفضل من السؤال المحض في آخرها.

وفي الخامس: أنه في حيز المنع، ولأن ما ذكرت يدل على عدم بقاء الفكر المشتمل على التعب، وانتفاء المجموع لا يدل على انتفاء كل جزء من أجزائه.

وفي السادس: أنه في حيز المنع أيضاً، إذ هو ناظر في المعاني المتعلقة بذاته تعالى وصفاته، وأنها غير مخلوقة.

ولا يقال: هب أنه كذلك لكن النظر فيها هو النظر في الغير، إذ النظر في الغير لأجله هو النظر فيه، ثم الذاكر يشتغل باللفظ الذي هو حادث بالاتفاق بخلاف المتفكر.

وفي السابع: أن المتفكر في الغيبية عن البراهين الباهرة على مطلوبه لا عن مطلوبه، وهو الحق تعالى وتقدس، أو صفة من صفاته، وإلا لما كان فكره أفضل.

obeikandl.com

وفي الثامن: أن العبادة الظاهرة لا تكون خالية عن شائبة الرياء والسمعة، وفيه من الفساد ما فيه، بخلاف الخفية إذ هي خالية عنهما، وما يكون كذلك فذلك إلى الإخلاص أقرب.

وفي التاسع: أن المنافع المذكورة بأجمعها حاصلة في الفكر مع الزيادة التي مر ذكرها من قبل، ثم الذكر لا يعتبر إلا وأن يكون مع الفكر، بخلاف الفكر فإنه غني عنه.

وفي العاشر: أن الفكر لطلب الحقائق التي بها يحصل المقصود كما ينبغي بخلاف الذكر.

وأما قوله: بأن الذكر استبقاء الموجود، فذلك مُسلَّم إذا كان مع الفكر، وأما إذا لم يكن معه فلا، وهذا ظاهر.

obeikandl.com